



مسار باحث في الفقه وأصوله

د. عبد الحميد الوافي

من شيم الباحثين الراسخين في العلم اتصافهم بوصفين: أحدهما، التلقي عن أهل الرسوخ في العلم، المشهود لهم بالإمامة في الفن. وثانيهما بلوغ منزلة الاعتكاف في مقامات العلم. تلك هي خلاصة تجربة شيعي الأستاذ الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله تعالى في تحصيل العلم بمستوييه المعرفي والمنهجي، وبهما كان رحمه الله تعالى من ورثة هذا العلم ورواده.

أما شيعه في المعرفة الأصولية - الإمام أبو إسحاق الشاطبي - فقد تركها كلمة باقية في عقبه من السالكين طريق تحصيل العلوم، يوم أن قال في (المقدمة الثانية عشرة): من أنفع طرق العلم الموصلة إلى غاية التحقيق به أخذ عن أهله المتحققين به على الكمال (التمام) الموافقات 1/ 91. ولا يماري أحد في إمامة الموافقات، وتحقق صاحبها بهذا المقام في التوجيه. وأما شيعه في منهجية البحث العلمي المعاصرة الأستاذ الدكتور الشاهد البوشيخي حفظه الله تعالى، فقد قال معللاً يوم أن وصف علمه في الدكتوراه (بأنه إضافة علمية حقيقية في الموضوع والمنهج)، قال (ومن أسباب ذلك الواضحة: قدم الصحبة للموضوع ولصاحب الموضوع). وانتهى في سياق التعليل إلى (أنه من العبث العلمي أن ينتقل الباحث متجولاً من موضوع إلى موضوع، فذلك له آثار سيئة على البحث العلمي) المصطلح الأصولي ص 87، وتلك نقيصة وفق الله تعالى الدكتور فريد رحمه الله تعالى إلى إدراك آفات فتركتها.

وسنعمل في هذا التقرير على رصد مظاهر هذا الرسوخ في العلم، من خلال ثلاثة عناوين: تعتبرها جامعة لما تحصل من معرفة بالأستاذ رحمه الله تعالى، وبمساره العلمي تجاوزت العقدين من الزمن.

أولاً: طموح علمي لتفعيل

أصول الفقه:

كان رحمه الله تعالى يبدي رغبة قوية في نقل قواعد علم أصول الفقه من المستوى الأكاديمي إلى مستوى التداول اليومي؛ لتصبح الثقافة الأصولية ثقافة عامة، تؤطر تفكير الأمة. وهو ما تلمسه في مختلف كتاباته؛ حيث كان يركز رحمه الله تعالى على تاصيل الأقوال والأحكام والمواقف من خلال الرجوع إلى المصدرين الأصليين في التشريع، الكتاب والسنة. كما يمكن أن ندرك هذا التوجه المنهجي بتوظيفه لقاعدة تحقيق المناط باعتبارها عنصراً خطيراً في عملية تنزيل الحكم على الواقع. ولذلك كثيراً ما كان يردد أن سبب كثير من الانحرافات في فقه الدين، إنما تحصل حين يتم تغيب ذلك المسلك الأصولي العتيق؛ الذي يعصم من الخلل في الفهم والاستدلال عند ربط الحكم بمحاله، وهي في هذا المقام أفعال المكلفين، أفراداً ومؤسسات.

وإن استيعابه لهذا المسلك الاجتهادي أكسبه رحمه الله تعالى قدرة كبيرة في الفقه والاستنباط. وهو الملحظ الذي يدركه كل من يقرأ كتاباته الفكرية والدعوية؛

سواء تعلق الأمر بمرحلة النقد والمراجعة، أو في مرحلة البناء لأفكاره و الصياغة لاقتراحاته.

وإن صلته بعلم أصول الفقه تعود إلى سنوات دراسته الجامعية لتحصيل الإجازة في الدراسات الإسلامية؛ حيث أنجز يومها بحث التخرج في موضوع حضاري لارتباطه بالواقع التاريخي للأمة من جهة، ومن جهة أخرى لتعلقه بالمنهجية التشريعية عند عدم النص الشرعي، إنه موضوع "المصالح المرسله ومواقف الأئمة منها".

وفي مرحلة ما بعد الإجازة، اتجه أول الأمر إلى كتابة بحث ببليوغرافي، كشف فيه واقع علم أصول الفقه بالمغرب. وأحسب أنه عمل تفرد به؛ لأنه عمل فيه على إحصاء مصنفاة المغاربة الأصولية سواء أكانت مطبوعة أم مخطوطة، في عمل وصفي تستفيد منه الخزائن العلمية في المغرب خصوصاً والعالم الإسلامي عموماً.

وفي هذه المرحلة وجد ضالته في كتاب

ويكشف عن ذلك الجهد العلمي الذي بذله في تدريس مادة الفقه الإسلامي في السنوات الجامعية 2000/99 و 2001/2002 و 2003/2004. حيث كان حريصاً رحمه الله تعالى على المراجعة النقدية للمادة المعرفية التي تدرس للطلبة؛ سواء تعلق الأمر باختيار المقرر المناسب لحاجات الأمة، أو تعلق الأمر بترجيح ما كان دليلاً أقوى في كثير من فروع الفقه. كما تلمس ذلك الجهد أيضاً عندما أبدى رغبة قوية في تدريس مادة نظرية العقود في الفقه الإسلامي؛ حيث عمل على أن تشمل كل أنواع العقود، مع زيادة اهتمام بالعقود الربوية، وربطها بصور واقعية من حياة الناس.

ويمكن الوقوف على صور من تجديد الفقه في كتاباته الفرعية في مجالات فكرية عامة، أو في بناء رؤيته لمناهج البحث العلمي، ومستويات الاستنباط من كنوز القرآن الكريم، والاستمداد من معارفه وعلومه.

وقد ظل رحمه الله تعالى يرقب حركة

كان دائم العناية بتعميق النظر في مناهج بناء الدليل في

الشرعيات؛ لأن استيعاب الطالب لاختلاف مستويات الحوار العلمي في الموضوع؛

لمن شأنه أن يقوي عنده الملكة النقدية التي تمكنه من تجاوز مرحلة التقليد، بما يؤهله

للقيام بواجبه الشرعي في الدعوة إلى الله تعالى، وخدمة المسلمين، وبما يكون

جامعاً لأشتاتهم، ومانعاً من تفرق كلمتهم؛ ليلا تذهب ريحهم.

الأمة في عملية التلقي والبلاغ من خلال تدريسه لقضايا التشريع الإسلامي سنوات 98/97 و 2000/99 و 2003/2004؛

حيث كنت أأس منه - ونحن نتداول في مقررات المادة العلمية على مستوى التنسيق بين الأساتذة المدرسين - أنه كان دائم العناية بتعميق النظر في مناهج بناء الدليل في الشرعيات؛ لأن استيعاب الطالب لمختلف مستويات الحوار العلمي في الموضوع لمن شأنه أن يقوي عنده الملكة النقدية التي تمكنه من تجاوز مرحلة التقليد، بما يؤهله للقيام بواجبه الشرعي في الدعوة إلى الله تعالى، وخدمة المسلمين، وبما يكون جامعاً لأشتاتهم، ومانعاً من تفرق كلمتهم؛ ليلا تذهب ريحهم.

ثالثاً: فكر مقاصدي بالقصد الأول:

يعتبر مؤرخو الفكر الأصولي أن مقاصد الشريعة ثمرة الفقه في علم الأصول، وأن الإحاطة بها مفهوماً ومصطلحاً، وأن التعمق في استيعاب مقاصد المقاصد رؤية ومنهجاً نادرة النادر. ولقد كان رحمه الله تعالى واحداً من نوادر هذا الفن. إذ أمضى سنوات زهرة عمره في اكتساب قضايا الفكر المقاصدي درساً ودراسة.

● أما درساً، فحين كان يعمل في صمت على صياغة الجانب المنهجي لنظرية المقاصد، كما أودعها الإمام الشاطبي كتاب الموافقات. وقد أحاط رحمه الله تعالى بالعمق المعرفي لذلك من خلال دراسته لمفهوم المباح، ثم استكمل البناء المنهجي

الموافقات للشاطبي؛ فلازمه ملازمة أثمرت باحثاً عالماً. وكأني به قد ألقى السمع والقلب هو شهيد لنداء الشاطبي في مقدمة كتابه حين قال (ليكون أيها الخل الصفي، والصديق الوفي هذا الكتاب عوناً لك في سلوك الطريق، وشارحاً لمعاني الوفاق والتوفيق... فقدم قدم عزمك؛ فإذا أنت بحول الله قد وصلت، وأقبل على ما قبلك منه، فها أنت إن شاء الله قد فزت بما حصلت. وإياك وإقدام الجبان، والوقوف مع الطرق الحسان، والإخلاق إلى مجرد التصميم من غير بيان. وفارق وهد التقليد راقياً إلى يفاع الاستبصار، وتمسك من هديك بهمة تتمكن بها من المدافعة والاستنصار). وكذلك كان؟؟

فقد ارتقى ببركة تلك الصحبة من الاستيعاب إلى المراجعة، فامتلاك التصور، فالتوظيف العميق، والإنتاج العلمي المواكب لمختلف مشكلات الأمة الفكرية والدعوية.

ثانياً، تجديد في الفقه

ومسالك التفقه:

كنت تلمس منه نفساً علمياً، يدل على وعي كبير بمشكلات الفقه الإسلامي، في مقررات التدريس في الجامعة، وفي المجتمع. والجامع بينهما رغبة منه في ترجيح علمي لما ينبغي أن يدرس للطلاب في قاعات الدرس، وما يلزم تصديره للناس. وضابطه في كل ذلك تحقيق أكبر قدر من المنافع الشرعية، لاختلاف حاجة كل من طرفي العملية التعليمية والدعوية.

الجامع لأشتات المنهجية المقاصدية في الفقه بمستوييه النظري والعملي عند دراسته لمصطلحي الأصل والاجتهاد عند الإمام الشاطبي. فأظهر رحمه الله تعالى شمول النظر المقاصدي، وضرورته في كل مراحل عملية التفقه في الدين.

● وأما دراسة، فقد امتدت معاناته في صياغة المادة المعرفية، وتقريبها من الناس مدة تدريسه مادة المقاصد، منذ أن تم تعيينه أول مرة بكلية الآداب بالمحمدية، ومن بعد التحاقه بهيئة التدريس بكلية الآداب بمكناس في 16/09/1994، وذلك ابتداء من السنة الجامعية 1996/1995 إلى غاية 01/02/2006. وهي السنة التي وضع رحمه الله تعالى رهن الإشارة رئيساً للمجلس العلمي المحلي لمكناس.

ولقد ظهر أثر ذلك في صياغة شخصيته العلمية والدعوية، وذلك حين فتح مسالك الحوار مع المخالف قبل الموافق. وحسب ما أخبرني به، فقد عقد لقاء علمياً مع بعض أساتذة كلية الآداب في حوار صريح حول كثير من القضايا التي كانت محط خلاف معهم بسبب اختلاف مشاربهم السياسية وتعدد اتجاهاتهم الفكرية والثقافية.

ويمكن القول إن الفكر المقاصدي شكل العمق الاستراتيجي لمساره العلمي بعد ذلك، خصوصاً حين اتجه إلى تجديد الإيمان في قلوب الناس؛ حيث كان يبني بناء الإنسان ببلوغ مرتبة الامتثال، بحسب ما بين الإمام الشاطبي من أن (العلم الذي هو العلم المعتبر شرعاً، أعني الذي مدح الله ورسوله أهله على الإطلاق، هو العلم الباعث على العمل، الذي لا يخلي صاحبه جارياً مع هواه كيفما كان؛ بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه، الحامل له على قوانينه طوعاً أو كرهاً) بالاتفاق بين الظاهر والباطن، تنقية لقصم المكلف من الحظوظ. وقد توج تلك الرحلة العلمية، من بعد استشارة مع فريق بيداغوجي من أساتذة شعبة الدراسات الإسلامية، بفتح وحدة للتكوين والبحث، تحت عنوان "الفتوى والمجتمع ومقاصد الشريعة" في السنة الجامعية 2001/2002

وهي الوحدة التي كانت تتويجاً لمساره التدريسي مادة المقاصد؛ حيث استقبل فيها طلبة من مختلف الجنسيات من العالم الإسلامي. واستمر العطاء العلمي إذ تم اعتماد وحدة جديدة للتأطير في الدكتوراه بعنوان "الاجتهاد المقاصدي التاريخ والمنهج"

ولقد اعتبر السيد نائب العميد في الشؤون الأكاديمية هذا التوجه، من الأستاذ رحمه الله تعالى، والفريق البيداغوجي المشارك في هذه العملية المعرفية، نقلة نوعية في تاريخ كلية الآداب بمكناس؛ حيث اعتبره إشعاعاً علمياً عرفه بالكلية في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، وجعل الطلبة الراغبين في الالتحاق بالكلية ينتقل من الدراسات الجامعية العليا إلى طلب التسجيل في مراحل الإجازة.

وفي ختام هذه الورقات نقرر أن مسار الفقيه الأستاذ الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله تعالى في تخصصه العلمي كان مساراً حافلاً بالعطاء، والاجتهاد، والاحتساب، رحمه الله تعالى، وغفر لنا وله.